مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش

الدكتور سالم اليحمداني

ليست الرومانسية مذهبا ادبيا. بقدر ما هي تعبير عن حالة نفسية. ولدتها ثورة الانسان على كل القيود .

ولست ممن يرون أن اي مذهب ادبي ينتهي حين يقوم مذهب ادبي اخر فيبقى هذا ويذهب ذاك. ذلك ان اياً من هذه المذاهب انما يولد ويتطور بفعل ظروف نفسية واجتماعية وسياسية. لا تنتهي طالما كانت هناك نفوس تشعر وتتحرك . وتمر بنفس الظروف التي تمر بها غيرها من قبل . فانما التعبير عن مذهب ادبي معين يجيء تعبيرا عن الظروف التي يعيش فيها . فيؤثر. ويتأثر. وتكون الحالة الادبية حينئذ طبقا لناموس حضاري وانساني يتكرر مع الايام والسنين .

واذا كانت الرومانسية قد ولدت في فرنسا قبل قرنين من الزمن. فلأن الظروف السياسية . والهزيمة النكراء التي ادت الى سحق النفسية الفرنسية كانت هي العامل الذي حرك نفوس الشعراء والادباء الى التعبير ضمن هذا المذهب الادبي الذي تمرد على كل القيود التي كان المذهب الكلاسيكي يتعلل به، فلم يعد الامل الذي كان يحلم به الشعب الفرنسي الا سرابا بعد هزيمة نابليون العظيم. فكانت احلامه سرابا لا ينتهي الى حقيقته. ومن هنا اصبح تعبير الشعر عن الذات الانسانية بكل ما يعتمل في هذه الذات من ظروف نفسية قاسية. هو أمل الخلاص من التفكير بنكسة الانسان .وفقدان امله العظيم. وصار اصحاب هذا المذهب لا يرون في التأنق بالالفاظ. ولا في اختيار العبارات . ولا في هذا النظام المتانق في النظم والانسياق وراء التصنع الا مرحلة رجعية في الادب . لا بد ان يحل محلها مذهب ادبي : لا تقيده

قيود او تحده حدود . كل ما يميزه ان يكون الشاعر حرا في اصطياد الفاظه، واختيار معانيه. وحرا في التعبير عن النفس الانسانية التي صار الغوص الى اعماقها ابان تلك الظروف لازمة من لوازم الادب والفن .

ومن هنا فان الرومانسية كانت مرحلة ادبية متطورة، جاءت على انقاض الكلاسيكية، ولكن هذا لا يعني ان الرومانسية بقيت وحدها في الميدان، اذ سرعان ما جاءت الرمزية تثور على هذا الافصاح الذي اتسمت به الرومانسية ورأت الرمزية في هذا الغموض الذي يعتبر من اول علاماتها خير مقياس يقاس به الفن والشعر. لان الافصاح في رايها ليس الا عجزا عن التعبير العميق الذي لا يدركه العاجزون .

ولكن هذا لا يعني ان الرومانسية قد انتهت بمجيء الرمزية. وان الرمزية قد انتهت بمجيء الواقعية... وهكذا .

في الواقع ان اي مذهب. انما يكمن التعبير عنه في ظل تلك الظروف التي ولدته. ومن هنا فان اية نكسة في اي مكان وفي نفس الظروف التي ولدت فيها الرومانسية. يمكن ان تكون عاملا فاعلا في اشعال الرومانسية. لان الرومانسية كما يقولون «(١) حالة نفسية وتعبير عن تلك الحالة، اكثر من كونها مذهبا ادبيا . »

فهل نستطيع – انطلاقا من هذا الكلام – ان نطبق هذا المفهوم على شعر النكسة الفلسطينية الذى يمثله بحق شعر محمود درويش ؟

لا شك ان النكسة التي اصيب بها شعب فلسطين هي اقسى بكثير من تلك النكسة التي اصابت شعب فرنسا بعد اندحار نابليون، ذلك ان ضياع الامجاد الفرنسية باندحار نابليون لا يمكن ان يقف امام ضياع وطن كامل شرد اهله وبنوه. ولا يمكن ان يقاس الوضع النفسي لشعب فرنسا بهذه المجازر والمذابح، ولا بهتك الاعراض الذي هو هدر لا لشعب فلسطين فحسب، بل فقدان لكرامة الانسان وسحق لكل حقوقه المشروعة. وادانة للحقوق البشرية كلها.

(١) محمد مندور، الادب و مذاهبه، ص٥٥، القاهرة ١٩٥٥ .

ومن هنا فان تعبير محمود درويش عن مذهب الرومانسية جاء وفاء لعوامل نفسية قاسية استلهمت الطبيعة في تعبيرها عن الم الانسان ورقة مشاعره الحزينة.

ومظاهر هذا التعبير في شعر محمود درويش كثيرة، خصوصا وان الطبيعة الفلسطينية هي طبيعة رقيقة موحية، تؤثر في الاعماق. وتغوص الى دخائل النفس البشرية، فتحرك فيها نوازع الالم. وتثير فيها ذكريات اججتها ايام الطفولة، واحلام الشباب.

واول مظاهر الرومانسية في شعر محمود درويش لجوؤه الى اعمق اعماق الطبيعة. فقد عرف عن شعراء الرومانسية لجوؤهم الى الغاب. يستوحون في ظله الرهبة. لانه مكان خال يثير في النفس جلالا وهيبة كما يثير ايضا سحرا وجمالا. ولعل ذلك واضح قبل محمود درويش في شعر شعراء الرابطة القلمية او في شعر كل المغتربين وعلى راسهم جبران ونعيمة وابو ماضي.

ولست ارى اكثر من لجوء الانسان الى الطبيعة راحة للنفس. فهي وان كانت تثير مشاعر الرهبة والوحدة. لكنها ايضا خير ملجأ يضع فيه الانسان همومه ويبث اليه احزانه. وحتى يستطيع الانسان ان يهرب من ضجيج المدينة وصخبها وقلقها. لجأ الى هذه الغابة ليرمي كل احزانه وهمومه. ويشكو الآمه وضجره.

ومن هنا كان هرب محمود درويش الى الغابة ولجوؤه الى اعشابها واشجارها. اسمعه يقول : « ٢ »

اعيدوني الى الغابة
الى الغابة
اعيدوني
وبالاعشاب والسر ليس غطوني
اذا استشهدت في الغابة

---

(٢) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان آخر الليل، ص٦٠ .

على اسلاكها اقف
فتنحدر السماء ويصعد الوادى

ورومانسية محمود درويش تعبير صادق عن النفس الفلسطينية المعذبة، فهي لم تتخذ الطبيعة نسيانا للهموم. وتعبيرا عن الحزن فحسب، وانما اتخذت هذه الطبيعة لتعبر عن قلق الجيل الفلسطيني الذي غمره وضع نفسي معين جعله يشك في كل شيء . . . انه جيل قلق لا يصدق ولا يثق، فهو كثير الظنون . شديد الريبة، عظيم الشك. اسمعه على لسان محمود درويش يتساءل وقد لجأ الى الغاب. هل يستطيع شجره ان يحميه من اذى المطر، او هل تستطيع الاشجار ان تقيه لفح الشمس ، او يستطيع ضوء القمر الساحر ان يذيب الثلج القاسي . او يطرد عن نفسه المعذبة اشباح الليالي؟ «٣»

يا أبي هل غابة الزيتون تحمينا اذا جاء المطر
وهل الاشجار تغنينا عن النار وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج او يحرق اشباح الليالي

وهو يرمز بهذا الى قلق النفس الفلسطينية وظنونها ويأسها.

وهكذا ترى محمود درويش لا يلجأ الى الغاب لينسى نفسه ويبث الم. ولكنه ليعطينا صورة من صور الحقائق الانسانية. وهي ان النفس البشرية حين يسحقها الالم تبدأ تشك وتضطرب وتتوهم وتقلق وتتساءل. ومحمود درويش مخلص في الرومانيسية اشد الاخلاص. فهو فنان رسام كأي فنان مخلص لفنه، كأي عظيم مخلص لشعبه، لقد اتخذ من الطبيعة صورا انسانية حقيقية لم يأت بها من وحي الخيال. ولم يتصور كما تصور الرومانسيون غابات حالمة، او طبيعة رسموها في خيالاتهم. ولكن الطبيعة في رومانسية محمود درويش طبيعة حية حقيقية . لا من نسج خيال شاعر او قلم كاتب منهوس او ريشة فنان ماهر.

لقد اتخذ محمود درويش من الطبيعة الفلسطينية ريشة واصباغا، لون بها شعره . وليس هذا فحسب. فقد كان اصيلا واقعيا حين اتخذ من مظاهر الطبيعة الفلسطينية ادوات للتعبير. وحين تكون لهذه الادوات علاقة النفس

(٣) محمود درويش. المجموعة الكاملة: ديوان آخر الليل ص٦٠ .

البشرية، تكون اعظم استخداما، واقرب لواقع الامور. لقد التصق شعر محمود درويش بالطبيعة التصاقا لا يقف امامه شعر غيره، لانه عبر عن اخلاصه لشعبه وبلده حين استخدم ما في الطبيعة من قمح وزيتون وعنب وليمون. وحين اشار الى الارض التي التصقت بها نفسه، وشدت اليها نفوس شعبه؛ ولا تزال تقاتل وتصمد من اجل الارض وما فيها من قمح وزيتون وعنب وليمون وغيرها... اسمعه هنا يتحدث عن الزيتون. ويشير الى ازهار الحب. ويذكر الخبز المملح. ويتغنى باطيار الشوق التي تلجأ الى بيادر القمح. فيقول: «٤»

فلينبت الزيتون وليزرع زهور الحب في قلب الجرائر
وليخمر الخبز المملح بالكرامة والمفاخر
يا طائر الاشواق ضعني قشة عند البيادر

ونقف احيانا امام صور مكتملة يلائم فيها الشاعر بين جزئيات. يحسن ربط كل اجزائها. وهي ليست من صوز الخيال فحسب. وان كان للخيال اثرفيها انما المهم في هذه الصور ـ ونحن نتكلم على ارتباط الشاعر بارضه وشعبه ـ اخلاصه لهذا الشعب وانتماؤه الشديد لهذه الارض. فجاءت صوره هذه تعبيرا عن صدق المشاعر الوطنية. بل تعبيرا عن صدق الارتباط بالارض وبالفن معا. بالارض لانه وقف شعره عليها وبالفن لانه اجاد واخلص وصدق. فجاءت صورة صادقة معبرة؛ لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا رسمتها. انظر تعبيره عن القرية والاطلال والجذور والزيتون. وذكره للناطور والمحراث والتراب في قوله: «٥»

القرية الاطلال
والناطور والارض اليباب
وجذوع زيتوناتكم
اعشاش بوم او غراب
من هيأ المحراث هذا العام
من ربى التراب

(٤) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان اوراق الزيتون ص١١٠ .
(٥) المصدر السابق .

ثم تراه في نهاية الصورة ييأس ويتحدث عن ضياع الفلسطيني حين يقول:

يا انت ... اين اخوك .. اين ابوك

انهما سراب

الا ترى ان هذه صورة ليست من خيال الشاعر. بل من صدق الواقع الذي يشير الى هجر الناس لارضهم. بل فقدان الاولاد لابائهم وذويهم. ارايت صورة اصدق تعبيراً او اكثر ملائمة من هذه الصورة الحقيقية التي عبر عنها محمود درويش ؟

ولم يترك محمود درويش صورة من صور الطبيعة الا واشار اليها. بل استلهم منها خيالا واسعا لا كغيره من شعراء الرومانسية حين يفرض عليهم هذا المذهب اللجوء الى الطبيعة. تعبيرا عن الذات فحسب. بل لانه يؤمن بقضية شعبه ايمانا عميقا وصادقا. اول علاماته التصاقه بالارض التي رحل عنها هذا الشعب. ولا تزال هذه الارض بما منحته من خيرات ماثلة امام عينيه يتمتع بها العدو ويستغلها استغلالا ظالما بشعا. بينما ينظر اليها اصحابها نظرة شوق ومرارة. ولذلك دفعه التصاقه بارضه وبما حوته من خيرات الى ذكرها والحنين لها. واللجوء اليها.

ولم يكتف بما ذكرنا من حديثه عن الزيتون والخبز. اسمعه هنا يتغنى بالليمون ويحن اليه فيقول : «٦»

كانت لنا خلف السياج

ليمونة ... كانت لنا

حباتها الصفراء تلمع — كالسراج

ويشير الى شجرة التين وزارعها. والى كوخ الطين وعيون الفلاحين في صورة مشابهة فيقول : «٧»

كانت اشجار التين

---

(٦) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عاشق من فلسطين ص٣٢ .

(٧) المصدر نفسه ص٢٣ .

وابوك ... وكوخ الطين
وعيون الفلاحين
تبكي في تشرين

ومثل ذلك حديثه عن العنب والقمح وغيرهما، مما تزهو به حقول فلسطين والاكثار من الاشارة الى شجر الزيتون له مغزاه في شعر محمود درويش فهو يرمز الى السلم ويذكر باساليب اليهود في القضاء عليه .

ولم يكتف محمود درويش ان يجعل من الطبيعة الساكنة الهادئة مثارا لرومانسيته الحزينة. وانما راح يرتفع الى اجواء السماء ليجعل من الشمس والمطر والغيم اوتارا يدق عليها انغام الحزن والاسى : «٨»

مطر ناعم في خريف بعيد
لا تقولي انا غيمة في المطار
والشمس بيارة في المغيب
وانا برتقال سليب

وشاركته العصافير والطيور والحمائم احزانه واشجانه . ووقف محمود درويش يجعل من برائتها ونقائها وبساطتها موضوعات لرومانسية الشعر الفلسطيني. فليس اروع من لجوء الحزانى الى الطيور والعصافير .

وليس اسلم من ان يتخذها الانسان انيسا يبثها الشكوى ويسمعها صوت العذاب : «٩»

انا صديقك ياالطيار لا تسلي عني فتلك شفاه المجد تمتدح

واذا شئنا ان نهبط مرة اخرى الى الارض . فان وقفتنا مع محمود درويش ستكون اروع ما يوحي الى الاسى والالم . اسى الذين تشردوا ورضوا حياة في الخيام .

من اشد ما يلفت النظر في مأساة فلسطين ظاهرة الخيمة . ولك ان تتصور

---

(٨) محمود درويش . المجموعة الكاملة: ديوان كتابة على ضوء بندقية ص٩٩ .

(٩) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص١٠١ .

حال اناس تركوا الضياع وهجروا البساتين والجنائن ليلجأوا الى حياة الخيمة التي لا تقيهم شر العواصف . ولا تمنع عنهم عاديات الدهر وحالكات الايام.
ولك بعد هذا ان تقف مع محمود درويش ليضعك امام صورة من اروع صور المأساة .

يضعك هذا الشاعر امام زمان ومكان . اما الزمان فليس له حد عنده لانه ولى ودار بظهره الى الشاعر .
واما الارض فقد صارت في نفسه ذكرى لا تمحها الايام والسنون . لانه ظل في شعره مشدودا اليها والى كل ما فيها «١٠»

كانت لنا ارض ودار
ومضى الزمان بنا ودار
وانهار وانطمس النهار
في جو خيمتنا المغمس بالدموع

فالخيمة في شعر محمود درويش اذن لا توحي الا الى ظلام واسى ودموع والم واذا كانت الخيمة في شعر صاحبنا توحي الى صور الظلام والظلم . فان الشاعر هنا قد استطاع بذكاء ان يرسم معادلة جيدة . فاذا ذلك الظلم واذا حياة الظلام التي يحياها الناس في هذه الخيام تتطلب عدلا وامنا وسلاما . ولكن من اين يطلب هذا السلام . ؟

لعل الشاعر كان اذكى حين لم يطلبها من الانسان . فالانسان ظالم بطبعه ...
واذا فليتجه الى الارض واهبة الخير . وليطلبها من الربيع ما نح الحياة .
وليس اروع من ان يلجأ الرومانسي الى مظاهر الطبيعة يبثها همومه وينشدها مطالبه : «١١»

يا انت يا زهر الربيع
صديقنا زهر الربيع

---

(١٠) المصدر السابق ص٣٦ .
(١١) المصدر السابق ص٣٦ .

جئناك من ليل الخيام
عساك تحمل من ربيع بلادنا بعض السلام

ولعل اشد مظاهر الرومانسية العربية ظاهرة الحنين . التي ميزت شعراء المهجر، فكانت قصائدهم تنبض بصورة من العواطف المشبوبة تحمل اغلبها روحا من الحزن على ماض ولى وانتهى . وتذكرهم بارضهم واهليهم . وذلك ينجم عنه روح رومانسي عجيب .

وفي قصائد محمود درويش نقف امام ذكريات حلوة تحمل معاني انسانية رقيقة . . . هذه الصور تتجلى فيها الرقة من ناحية ، ومن ناحية اخرى تحمل دلالات نفسية ، وانسانية معينة ، انظر اليها في شعر محمود درويش وهو يتذكر من خلالها اطفالا يحملون الغلال في السلال فيقول: « ١٢ »

اطفالنا حملوا السلال
عند الضحى ليعبؤوها بالغلال

ولعل رقة هذه الصور تتمثل بهذا الامل الذي يرجوه الشاعر من اطفال فلسطين . بل هي اكثر اثارة في هذه الاسئلة التي ترتسم على وجوههم فيقول:

بوجوههم امل وفي احداقهم يبكي سؤال

ثم يربط بين ربيع العمر وربيع الارض فيقول:

يا انت يا زهر الربيع
صديقنا زهر الربيع
انسيتنا؟ انسيت لون عيوننا؟ !

ثم يعود به الحنين الى ذكريات الطفولة التي تثير في شعره ارق المشاعر الانسانية، لا لانه ينتزعها من الطبيعة الحية ، بل لانها تشير الى صور الطفولة البريئة التي تمثل في شعره اسى ولوعة على ما ضاع وفات:

---

(١٢) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص٣٤ .

انسيت عمر حنيننا
انسيتنا؟ انسيت لعبتنا القديمة
عند الحواكير الكريمة
تحت العريشة . . . عند جذع التوتة الحيرى اليتيمة

حتى الطبيعة في شعر محمود درويش تتحرك في جو من اجواء المأساة الفلسطينية. ولعلها كانت رائعة في البيت الاخير من القصيدة.

وكل شيء في شعر محمود درويش يرتبط بالارض المنكوبة، ويمتزج بمظاهر الطبيعة ارتباط الروح بالجسد. انمحمود درويش لم يكن شاعرا فلسطينيا يعبر عن نكبة امته العربية، بل هو شاعر انساني امتزجت نفسه، بل ذابت في الارض التي ولد فيها وترعرع في خيراتها.

ومن هنا اثارت معالمها في شعره وفي نفسه رقة واسى، بل اثارت ايضا عمقاً وثورة انظر اليه في هذه الابيات التي تتمثل فيها كل معالم الطبيعة الحية، وكيف استطاع ان يثير مشاعرنا جميعا حين ربط بينها وبين الحرمان الذي يعانيه شعب فلسطين فيقول: (١٣)

حدثوني عن بلادي انها حلم يغمر افاق حياتي
عن كروم رحبة مثل المدى وحقول طيبات ناظرات
حدثوني عن عشاش رطبة بعثرتها الريح في كل الجهات
عن حفيف التوت في ساحتنا عن عبير في ذرانا الملهمات

وفي بيته الاخير يبلغ قوة ارتباطه بارضه وشدة حنينه اليها.

حدثوني انا قلبي بيدر فارغ حن لضم السنبلات

ولم تكن معالم الطبيعة الرقيقة لتثير في نفس محمود درويش ذكريات الاسى والانين فحسب، فان هناك ذكريات اخرى اكثر نبلا واشد رقة واعنف تاثيرا في نفس شاعر شاب يهوى الجمال، وتختلط مشاعره بسحر الطبيعة . . . ان ذكريات الحب تشكل هي الاخرى جانبا من جوانب شعر محمود درويش .

---

(١٣) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان عصافير بلا اجنحة ص١٨،١٩ .

ولكنها تعبر عن روح رومانسي حزين لانها تذكر بالحرمان والشوق معا: «١٤»

في رذاذ المطر الناعم
كانت شفتاها
وردة تنمو على جلدى
و كانت مقلتاها
افقيا يمتد من أمسي
الى مستقبلي

على ان هذا الروح الحزين الذى هو اول علامة من علامات الرومانسية ،لا يعني انه كل شيء بالنسبة لهذا المذهب .فقد رايناه يختلط في كثير من الاحيان بروح شديد من التمرد .لا تستلم ولا تهادن.وتتخذ من واقعها الحزين سببا للصمود .انظر الى هذه الظاهرة كيف تنمو في شعر محمود درويش،وكيف تظلل نفسها بظلال من الطبيعة نفسها . فتتخذ من مظاهر هذه الطبيعة أداة تعالج بها فكرها.

يقول محمود درويش ،وهو يستلهم من ارضه ومن مظاهر طبيعة بلده فكره الثائر والحزين في صورة رومانسية رائعة: « ١٥ »

لو يذكر الزيتون غارسه
لصار الزيتون دمعا
إنا سنقلع بالرموش
الشوك والاحزان قلعا
سنظل في الزيتون خضرته
وحول الارض درعا

واوضح من هذه الصورة .صورة اخرى تبدو فيها روح التمرد والصمود من خلال فكر رومانسي .بل لعل هذا الفكر نفسه هو الذى دفع الى هذا الروح

---

(١٤) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان جرح فلسطيني ص١٢٢ .
(١٥) محمود درويش، المجموعة الكاملة: ديوان اوراق الزيتون ص٦٩ .

المتمرد : يقول محمود درويش : « ١٦ »

انني عدت من الموت لأحيا : لأغني

فدعيني استعر صوتي من جرح توهج

وأعينيني على الحقد الذى يزرع في قلبي عوسج

انني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد ان امشي على جرحي

وامشي ثم امشي واقاوم

ان محمود درويش هنا يستلهم من الظلم ومن الحزن روحا من المقاومة والصمود.

أليست هذه روحا رومانسية ولكنها ليست كتلك الروح المستسلمة التي ألقت نفسها في احضان الطبيعة ؟

ذلك جانب مهم عرف به هذا المذهب وعبر عن مظهر معين من مظاهره. ولم يعرف التيار الرومانسي في شعرنا الحديث صورا اختلطت فيها أحزان الشعراء بصمودهم . كهذا الشعر الفلسطيني الذى عانى من الهزيمة ، كما عانى من مرارة الالم والاسى.

ولعل شعر محمود درويش يمثل وثيقة مهمة من وثائق هذا الجيل ليس هو كل هذا الشعر الفلسطيني المعاصر ، وانما هو رافد واحد من روافده الكثيرة.

ولعل لنا عودة اخرى الى بقية مظاهر هذا الشعر وهو ظاهرة تاريخية عجيبة ، لا نرى أن بحثا قصيرا كهذا البحث يستطيع ان يوفيه حقه.

---

(١٦) محمود درويش ، المجموعة الكاملة : ديوان آخر الليل ص٦٩ .